دقائق مع صهيب الرومي (رضي الله عنه)

بقلم الدكتور محمد أديب الصالح

دراسة سير الأعلام في التاريخ أمر ذو أهمية بالغة الأثر في تكامل الثقافة والإعداد من أجل أن يأخذ الفـــرد دوره الفعال في حياة الجماعة وبناء المجتمع ، ونحن أمة أكرمنا الله بأن كان أعلامنا صورة حية واقعية للمبادئ التي حملوها ، و لم يبخلوا بالعطاء في سبيلها ؛ فإذا قرأت سيرة واحد من هؤلاء وقعت على الأنموذج الذي تعتبر حياته إعلانـــاً أي إعلان ينادي في الناس أن الإسلام وطاقات الإنسان على سبيل سواء ، وأن أولئك الرجال الذين اختـــصهم التـــاريخ واستودع أيامهم صفحاته ، إنما بلغوا ما بلغوا ، بحرصهم على الوفاء بموثقهم من الإسلام ، وإقدامهم حيـــث يـــتعين الإقدام ـــ وصبرهم على مستلزمات العقيدة حيث لا يصبر إلا أقوياء الإيمان ـــ فلا المال ولا الولد ولا حب الحيـــاة بصارف عن هذا الذي هو إقدام ، ولا بمثبط عن ذاك الذي هو صبر وعطاء .

والحقيقة التي لا يسع منصفاً جهلها أو تجاهلها ، أن المسلمين الأوائل كانوا أقدر على نشر الإسلام في الجزيـــرة العربية ، ثم في تميزها من بقاع الأرض بذلك السلوك الفريد الذي كان ترجمان القرآن الذي حملوه إلى الناس ، وكان التعبير الفطري الميسر عن منهجهم في التفكير والطريقة التي تحكم سلوكهم تجاه أنفسهم وتجـــاه مـــن يـــدعونهم إلى الإسلام .

وما أحسب أن واقعة من الوقائع التي يصنعها المرء بسلوكه وعطائه يمكن أن تبتلعها الأيام فلا تعطـــي عطاءهـــا على ساحة البناء أو يندرس أثرها في التاريخ ؛ فالأجيال المتلاحقة تفيد وما تزال بحاجة إلى أن تفيد أكثر وأكثر مـــن العمل القدوة الذي يصنعه الوعي الإنساني بوصفه إنساناً ، ويأخذ أبعاده بعمق وشمول منسقين مـــع العقيـــدة الـــتي يحملها ، والفكر الذي يدعو غليه .

واليوم وقد كثرت المعوقات والمثبطات ، تبدو ضرورة ملحةً دراسة تلك النماذج بأصالة وعمق ، من أجـــل أن يكون ذلك عوناً للفرد على الإسهام الإيجابي النافع في كل ما هو خير لمجتمعه وأمته .

وعلى هذه الطريق المشرقة النيرة نحن على موعد مع قبسات من حياة واحد من أصحاب رسول الله صـــلى الله عليه وسلم . ذلك هو صهيب بن سنان الرومي .. ويقال : خالد بن عمرو بن عقيل . وأمه من بني مالك بن عمـــرو بن تميم ، ولقد ثبت أنه ليس برومي ، ولكن قيل له ذلك لأن الروم سبوه صغيراً ، رحمه الله ورضي عنه .

ويقول ابن سعد في (الطبقات) : كان أبوه وعمه على الأُبُلّة من جهة كسرى ، وكانت منازلهم على دجلة من جهة الموصل ، فنشأ صهيب بالروم فصار ألكن ، ثم اشتراه رجل من كلب فباعه بمكة فاشتراه عبد الله بن جـــدعان التميمي فأعتقه ، على أنه هو في حديث له مع عمر بن الخطاب قال عن نفسه : وأما انتمائي إلى العرب ؛ فإن الروم سبتني صغيراً ، فأخذت لسانهم . روى ذلك البغوي من طريق زيد بن أسلم عرابيه .

ولقد كان صهيب من السابقين إلى الإسلام والإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ، فهو واحد من سبعة هم أول من أظهر إسلامه .

و لم تمر إسلامه دون أن يدفع ثمنها غالياً ، ولكن ما عند الله خير وأبقى لأولئك الذين صبروا على ظلم قـــريش وأذاها عندما آووا إلى دعوة الإسلام . جاء في صحيح الأخبار أن عمار بن ياسر كان يعذب حـــتى لا يـــدري مـــا يقول ، وكذا صهيب ، وعامر بن فهيرة وقوم ، وفيهم نزل قوله تعالى في سورة النحل : [ثم إن ربك للذين هـــاجروا من بعد ما فتنوا ، ثم جاهدوا وصبروا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم] .

أجل : لقد كان صهيب من المستضعفين ممن يعذب في الله ، فما غيّر ولا بدل ، بل صدق ما عاهد الله عليـــه ، وصبر وصابر، وقد هاجر إلى المدينة مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر من هاجر في تلك السنة ، فقدما في نصف ربيع الأول ، وشهد بدراً والمشاهد بعدها .

ومن كريم مواقفه في البذل ، والشجاعة في مواجهة الباطل وأهله ما روي أنه لما هاجر، تبعه نفر من المشركين ، فسئل فقال : يا معشر قريش ، إني من أرماكم ، ولا تصلون إليّ حتى أرميكم بكل سهم معي ، ثم أضربكم بسيفي ، فإن كنتم تريدون ما لي دللتكم عليه ، فرضوا ، فعاهدهم ودلهم ، فرجعوا فأخذوا ماله ، فلما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال له : ربح البيع ، فأنزل الله عز وجل : [ومن الناس من يشري نفسه ابتغـــاء مرضـــاة الله والله رؤوف بالعباد] .

لقد كان رحمه الله شجاعاً صادق التوكل حين لم يخفه تهديد هؤلاء النفر من المشركين ووعيدهم ، بل هـــددهم بأن يستنفد ما في وسعه في قتالهم ، وكان شجاعاً صادق التوكل أيضاً حين نزل على كل ما يملك من المال في سبيل أن يسلم له دينه ، وتتم له هجرته ، وفي غمرة ذلك كله كان مثال الوفاء حين عاهدهم ودلهم ، وهم المـــشركون ـــ فرجعوا بكل جشعهم وخيلائهم وأخذوا ماله .

ولكن الله الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة أنزل فيه وفي أمثاله قرآناً يتلى حتى يرث الله الأرض ومـــن عليهـــا ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يثني على صنع صهيب فيما بذل من الدنيا ابتغاء الآخرة وطلباً لرضوان الله ويـــزف

إليه تلك البشرى العظيمة بقوله : ربح البيع ، ونزلت الآية الكريمة : [من الناس من يشري نفسه ابتغـــاء مرضـــاة الله والله رؤوف بالعباد] لتظل عنوان الكرامة والقبول فسبحان المنعم المفضل .

ولقد كان هذا الصحابي الجليل ـــ والحمد لله ـــ جديراً بهذه المكرمة ، فقد ثبت على طريق الحق وأسهم أيمـــا إسهام في بناء المجتمع الذي اتسم بالإيمان والتكافل والنظام ، و لم يتخلف يوماً واحداً عن كل ما هو بذل وعطـــاء في ساحة المكرمات . قال رضي الله عنه : لم يشهد رسول الله مشهداً قط إلا كنت حاضره ، و لم يبايع بيعـــة قـــط إلا كنت حاضرها ، و لم يسير سرية قط إلا كنت حاضرها ولا غزا غزاة قط إلا كنت فيها عن يمينه أو شماله ، وما خافوا أمامهم قط إلا كنت أمامهم ، ولا ما وراءهم إلا كنت وراءهم ، وما جعلت رسول الله صلى الله عليه وسلم بـــيني وبين العدو قط حتى توفي .

مات صهيب سنة ثمان وثلاثين أو سبع وثلاثين للهجرة . رحمه الله وأعلى مقامه في الآخرين ، ورزقنـــا حـــسن التأسي ، فنحن اليوم أحوج ما نكون إلى حسن التأسي بهؤلاء الرجال ، وعلى الله قصد السبيل .